مبشر الحاج في العصر المملوكي

(٦٤٨ - ٩٢٢هـ/ ١٢٥١ - ١٥١٧م)

د. محمد بن عبدالله الشويعر
مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني

تُعد وظيفة مبشر الحاج بمثابة ناقل الأخبار للسلطان أو من ينوب عنه في مصر والشام، وكان مبشر الحاج في العهد المملوكي يسبق الحجاج العائدين إلى مصر والشام، ويبشر السلطان والأهالي بسلامة الحجاج، ويخبرهم متى عودتهم، ويطمئنهم على صحتهم وأوضاعهم، بالإضافة إلى نقل الأخبار الخاصة بأحوال مكة المكرمة والمدينة المنورة للسلطان أو من ينوب عنه.

وقد يكون مبشر الحاج العين التي يرى بها السلطان أثناء ذهابه إلى مكة وعودته منها، حيث يخبره بكل ما يراه، ويسمعه، وهذه تُعد إحدى المهام المهمة التي يقوم بها مبشر الحاج.

وقد اعتاد الناس في مصر على الوقت الذي يحضر فيه هؤلاء المبشرون، ويكون عادة في نهاية شهر ذي الحجة، أو أوائل شهر المحرم من كل سنة.

(قدم للنشر في ١٤٣١/٧/١٦هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٢/٤/٢٩هـ).

وإذا حصل عارض للمبشرين أثناء عودتهم، فإنهم يكلفون بعض الأعراب العارفين بمسالك الطرق للذهاب إلى مصر أو الشام، لتطمين الناس بأحوال الحجيج، والسبب الذي منع وصولهم إلى القاهرة أو دمشق.

وكان الناس في القاهرة ودمشق يفرحون بقدوم هؤلاء المبشرين، لأنهم يطمئنونهم على أهلهم وذويهم، ويخبرونهم بقرب وصولهم.

كما يوزع هؤلاء المبشرون كتب الحجاج التي يحملونها إلى أهالي الحجاج أو ذوي قرابتهم.

وورد مصطلح مبشر الحاج في المصادر المملوكية بعدة أسماء مختلفة، مثل: "مبشر الحاج"، أو "البشير"، أو "مبشرو الحاج"، أو "كتب الحجاج"، حيث تعددت هذه المسميات لمبشر الحاج في تلك المصادر، والأصل فيها واحد هو مبشر الحاج.

أما مبشر الحاج فقد ورد كثيرًا في المصادر المملوكية وغيرها، وعلى سبيل المثال: "وفي أول سنة ٧٠٨ هـ (يوليو ١٣٠٨م) قدم مبشر الحاج إلى مصر"(١).

وفي حوادث سنة ٧٣٣-٧٣٤هـ/ ١٣٣٣-١٣٣٤م، يذكر ابن الجزري أنه "وصل إلى دمشق كتب الحجاج"(٢).

---

(١) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ق١، ص٤٢.

(٢) محمد بن إبراهيم الجزري (شمس الدين)، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري)، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٣، ص٦٦٢.

"وفي سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧م)، قدم مبشرو الحاج وأخبروا بسلامة الحجاج"(٣).

أما عن أول إشارة وردت في المصادر المملوكية عن البشير أو مبشر الحاج فكانت في أول المحرم لسنة ٦٦٨هـ/ سبتمبر ١٢٦٩م، عندما عاد السلطان الظاهر بيبرس(٤) من حجته ووصل إلى الكرك، فأرسل أحد خواصه بكتب البشائر إلى دمشق يخبرهم بسلامته وقضاء حجته(٥)، خاصة أنه كان قد تكتم أمر حجه بسبب الأوضاع السياسية التي كانت تمر بها البلاد خارجيًا وداخليًا في تلك الفترة، وخوفه من استغلال عدم وجوده في مصر، سواء من جانب التتار أو الصليبيين.

ويحاول الباحث كشف بعض المهام التي كان يقوم بها هؤلاء المبشرون، وما أدوارهم التي كانوا يقومون بها؟

---

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٢٨.

(٤) السلطان الظاهر بيبرس: أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولد بأرض القبجاق سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م، تولى السلطنة بعد مقتل السلطان سيف الدين قطز سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، بعد هزيمة التتار في عين جالوت، كان شديد البأس، حسن السياسة، توفي في المحرم ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، بدمشق. أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (شمس الدين)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د. ت)، ج٤، ص١٥٥؛ محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج١، ص٢٣٥.

(٥) أحمد بن عبدالوهاب النويري (شهاب الدين)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد عبدالهادي شعيرة، مراجعة: محمد مصطفى زيادة، ج٣، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص١٦٩؛ المقريزي، الذهب المسبوك فيمن حج من الأمراء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، ص٩٣.

وهل يخصص للمبشرين رواتب أو هدايا وخلع؟ كذلك متى يعود هؤلاء المبشرون للقاهرة ودمشق؟ وما المدة التي يستغرقها المبشرون في الطريق؟ وما العقبات التي قد تصادف المبشر؟

مهام مبشر الحاج:

تعددت مهام مبشر الحاج في العصر المملوكي؛ لأهمية الدور الذي كان يقوم به، حيث كان له دور كبير في نقل الأخبار للسلطان، وهذه الوظيفة التي تبدو في ظاهرها نقل الأخبار إلا أنها تمثل أيضًا أهمية كبرى على المستوى السياسي، حيث لا يُرسل عادة في هذه المهمة إلا الخواص والأمراء الموثوق بهم، حفاظًا على سرية نقل المعلومات التي تُنقل إلى السلطان والأمراء من قبل مبشر الحاج، وقد أمدتنا المصادر المملوكية ببعض المهام التي كان يقوم بها مبشر الحاج، ومن أهمها:

أولاً: التبشير بعودة السلطان من الحج

كانت من أولى مهمات المبشر أن يبشر الناس في مصر والشام بعودة السلطان وسلامته وقضاء حجته، إذا كان السلطان حاجًا في تلك السنة.

ويسرع المبشرون إلى القاهرة أو دمشق لتطمين الناس بسلامة السلطان وقرب عودته، ويبدأ الأمراء والخواص بالاستعداد لاستقبال السلطان بتزيين القاهرة أو دمشق، تعبيرًا منهم عن الابتهاج بمقدمه وسلامته.

وأثناء حجة الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ/ أغسطس ١٢٦٩م، وصل البشير إلى دمشق، وأعلم الأمراء والخواص بقرب عودة السلطان من الكرك(٦)، فابتدئوا بتزيين دمشق استعدادًا لاستقبال سلطانهم(٧).

وعندما حج السلطان المملوكي الملك الناصر محمد(٨) سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٣م، "وصل إلى دمشق الأمير سيف الدين قجليس(٩) من الحجاز في أول شهر المحرم سنة ٧١٣هـ (مايو ١٣١٣م) مبشرًا بسلامة السلطان وقرب عودته، وإنه فارقه

---

(٦) الكرك: اسم لقلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم، وبيت المقدس، وهو على سن جبل عال تحيط به أودية إلا من جهة الربض. ياقوت بن عبدالله الحموي (شهاب الدين)، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت)، ج٤، ص٥١٤.

(٧) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦٩.

(٨) الملك الناصر محمد بن السلطان قلاوون الصالحي: تولى السلطنة بعد قتل أخيه الأشرف في المحرم سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، وكان عمره تسع سنين، وكان مولده سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، وتوفي سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، وعمره سبع وخمسون سنة. إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (صارم الدين)، المعروف بابن دقماق، النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١٣٨.

(٩) قجليس الناصري السلاح دار: كان من خواص الناصر يندبه في المهمات، وكان عارفًا بالميقات، وله أوضاع نفيسة. كان جميل المودة، حسن الصحبة، وتزوج بنت الملك، وقد نال من الملك الناصر منزلة عظيمة، فكثرت مهابته وعظمت حرمته. توفي سنة ٧٣١هـ/١٣٣١م. أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، (شهاب الدين)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د. ت)، ج٣، ص٢٤٣ - ٢٤٤.

من المدينة صلوات الله على ساكنها، وإن السلطان قد قارب البلاد، فدقت البشائر لذلك"(١٠).

ثم وصل البريد وأخبر أن السلطان قد قارب الكرك، فدقت البشائر بدمشق، ثم وصل الخبر أنه دخل الكرك في ثاني المحرم يوم الأحد، ووصل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء ١١ المحرم ٧١٣هـ(١١).

ووصل الركب الشامي إلى دمشق يوم الأربعاء ٢٦ المحرم ٧١٣هـ وقت الظهر، وأسرعوا ليدركوا السلطان بدمشق، ويخلوا له الطريق(١٢).

وعندما حج السلطان الناصر محمد حجته الثانية سنة ٧١٩هـ/ ١٣٢٠م، قدم الأمير ناصر الدين محمد بن أرغون والأمير سيف الدين بن قطلوبغا المعروف بالغربي(١٣) إلى القاهرة مبشرًا بسلامة السلطان وبقرب قدومه من الحجاز، وقدم الأمير بدر الدين كوجك إلى دمشق مبشرًا بسلامة السلطان وقضاء حجته(١٤).

---

(١٠) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٦٩؛ البرزالي، علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف، المقتفى على كتاب الروضتين المعروف: "بتاريخ البرزالي"، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٢، ق٢، ص٩٤.

(١١) البرزالي، تاريخ، ج٢، ق٢، ص٩٤.

(١٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٩٥ - ٩٦.

(١٣) قطلوبغا الناصري المعروف بالمغربي، أحد الأمراء المقدمين، كان دينًا خيرًا، حج بالركب المصري مرة وحمدت سيرته، توفي بالقاهرة في شهر رمضان سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٥٢.

(١٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٠١؛ الذهب المسبوك، ص١٠٥.

"وفي الثامن من المحرم سنة ٧٣٣هـ (٦ أكتوبر ١٣٣٢م) وصل إلى دمشق البريد من عند السلطان الناصر محمد يخبر بسلامته وعافيته، وأنه فارقه من مكة، وقيل من رابغ، فعند ذلك دُقت البشائر بالقلعة، وعلى أبواب دور الأمراء، وتم تزيين دمشق لعظم فرحتهم بسلامة السلطان"(١٥).

وكان السلطان الناصر قد حج سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م، من مصر، وكان تحركه منها إلى مكة في ٢١ شوال سنة ٧٣٢هـ/ ٢٣ يوليو ١٣٣٢م(١٦)، وكانت عودته إلى القاهرة يوم السبت ١٨ المحرم ٧٣٣هـ/ ١٨ أكتوبر ١٣٣٢م(١٧).

وفي سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م، قدم الأمير أسنباي الخاصكي مبشرًا بسلامة السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي وأخبرهم بقدوم السلطان إلى القاهرة، وبدأ الأمراء بتزيين القاهرة والاستعداد لاستقباله(١٨).

وهذه المهمة التي كان يقوم بها المبشر كانت تساعد الأمراء والخواص والتابعين للسلطان في القاهرة أو دمشق بأن يكونوا مستعدين وحاضرين عند قدوم السلطان إليهم، لاستقباله والترحيب به، وتهنئته بالحج وسلامة الوصول.

---

(١٥) الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص٥٨٧.

(١٦) المصدر السابق، ج٢، ص٥٣٢.

(١٧) المصدر السابق، ج٣، ص٥٨٩.

(١٨) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ط٣، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ج٣، ص١٦٠.

ثانيًا: نقل أخبار الحجيج والحج إلى السلطان، وأخبار ما يحدث في مكة أثناء فترة الحج

تعد هذه المهمة من أهم المهمات التي يقوم بها المبشر، حيث يقوم المبشر بإخبار السلطان عن أحوال الحجيج، ونقل مشاعرهم للسلطان، إما بالرضا أو بالسخط عن الأوضاع التي عاشوها أثناء إقامتهم بمكة المكرمة، والمدينة المنورة، ومن أهم هذه الأخبار التي وردت في المصادر:

"في سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) قدم مبشر الحاج إلى مصر، وأخبر بأن الأمير سيف الدين نوغاي القبجاقي حارب العبيد بمكة، وذلك لأنهم كثر تخطفهم أموال التجار، فبعث نوغاي مماليكه إلى العبيد فأمسكوا ببعضهم، وتمكن الباقون من الفرار"(١٩).

وهذه الرواية تمثل للسلطان شيئًا كثيرًا، وهو حرص أمير الحج على الحفاظ على أمن مكة أثناء موسم الحج، وعدم السماح لأحد بالتعرض للحجيج أو محاولة إفساد موسم الحج.

ويذكر الجزري في تاريخه أنه "وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك(٢٠) تاريخها ثامن المحرم من سنة ٧٣٤هـ

---

(١٩) المقريزي، السلوك ، ج٢، ق١، ص٤٢؛ عمر ابن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، جدة، دار المدني، (د.ت)، ج٣، ص١٤٥.

(٢٠) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، ومن تبوك والمدينة اثنتا عشرة مرحلة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٧. وتبوك الآن أصبحت مدينة من شمال مدن الحجاز الرئيسة التابعة للمملكة، وتبعد عن المدينة شمالاً بنحو(٧٧٨) كيلا. عاتق بن غيث البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، مكة المكرمة، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٥٩.

(٢٦ سبتمبر ١٣٣٣م)، وقرئت على أصحابها وأخبروا فيها أنهم طيبين في خير وعافية"(٢١) وتدل هذه الرواية على أن هناك كتبًا ترسل مع المبشرين لأشخاص بعينهم، وليست تحمل الأخبار العامة فحسب.

"وفي يوم الجمعة الحادي والعشرون من شهر محرم من سنة ٧٣٧هـ (٧ سبتمبر ١٣٣٦م)، وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك، تاريخها ثالث عشر المحرم، وتأخرت عن العادة، وقلق الناس لذلك، وقيل إنه حصلت مشقة كبيرة، ومات كثيرًا من الجمال"(٢٢)، وتشير الرواية إلى أن المسافة من تبوك إلى دمشق قد قطعت في نحو عشرة أيام، وربما يرجع ذلك إلى سوء الأحوال الجوية أو قلة الدواب.

"وقدم مبشر الحاج إلى القاهرة سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م)، وأخبر بسلامة الحجاج ورخاء الأسعار"(٢٣).

وفي أول شهر المحرم من سنة ٧٣٨هـ/ ٧ أغسطس ١٣٣٧م "قدم مبشرو الحاج، وأخبروا بسلامة الحجاج، ورخاء الأسعار، وحسن سيرة الأمير شمس الدين سنقر السلاري أمير الحاج"(٢٤).

---

(٢١) الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص٦٦٢.

(٢٢) المصدر السابق، ج٣، ص٩٢٥. ويضيف ابن كثير بأن الرجال والنساء قطعوا الطريق مشيًا على أقدامهم بسبب موت الجمال. إسماعيل بن كثير القرشي (أبو الفداء)، البداية والنهاية، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، القاهرة، دار الفجر للتراث، ج٣، ص١٨٧.

(٢٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٤١.

(٢٤) المصدر السابق، ج٢، ق٢، ص٤٢٨.

ومن خلال هذه الأخبار التي ينقلها المبشر وخاصة عن النواحي الاقتصادية في مكة حيث رخص الأسعار وكثرة الجلب، وكذلك رضا الناس عن أمير الحج الذي كلفه السلطان بهذه المهمة، ومن ثم فإن دوره أصبح مثل المخبر للسلطان يخبره عن كل شيء شاهده وسمعه.

وفي حج سنة ٧٨٨هـ/ يناير ١٣٨٦م، التقى كُبيش بن عجلان ببطا الخاصكي رأس المبشرين وقال له: "أعلم السلطان أنني طائع، وأنني منعت العرب من نهب الحاج، وأني لا أرجع عن طلب ثأري من غريمي عنان أمير مكة"(٢٥)، وهذا الخبر أيضًا يوضح حاجة الشريف كبيش للسلطان وخوفه منه، ويبين أيضًا الوضع السياسي القائم في مكة والأحداث التي حدثت بين أشراف مكة، وخاصة تنازعهم فيما بينهم(٢٦)، وهذا يعطي دلالة على أن المبشر ينقل أخبار مهمة للسلطان.

وهذه الأخبار التي ينقلها المبشر إلى السلطان عن أحوال مكة، وما يحدث بها خلال موسم الحج، من غلاء في الأسعار أو رخصها، وكذلك نقل أخبار أمير الحاج وما يواجهه من

---

(٢٥) أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين)، إنباء الغُمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص٢٢٣، وفي رواية أخرى عند ابن فهد أن كبيشًا فارق جدة وقصد طريق الحج المصري، وتعرض للقاء الأمير بركس الخليلي، واستعطفه على آل عجلان، وقال كُبيش للخليلي: إنما تركت التعرض للحاج إكرامًا لك، وسأله المساعدة إذا وصل إلى الديار المصرية. إتحاف الورى، ج٣، ص٣٥٧.

(٢٦) للمزيد في هذا الموضوع راجع: ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣١٥ - ٣٥٧.

مشاكل أثناء الطريق أو في مكة أثناء تأدية مناسك الحج، كل هذه الأخبار لها أهمية كبرى لدى السلطان؛ لأنها تطلعه على أحوال مكة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

كذلك يقوم المبشر بدور مهم جدًا وهو إحضار المناوئين والخارجين عن سلطة السلطان في مكة إلى القاهرة عندما يقبض عليهم، لثقة السلطان وأمير الحاج في المبشر بأن يبعثوا معه مثل هؤلاء الأشخاص، فقد أوردت بعض المصادر أنه في شهر ذي الحجة من سنة ٨٤٦ هـ/ إبريل ١٤٤٣م، قدم مبشر الحاج وبصحبته الشريف علي⁽٢٧⁾ أمير مكة المشرفة، حيث قبض عليه بأمر من السلطان عندما أثار الفتن في مكة، وقيِّد بالحديد، وأرسل مع المبشر إلى القاهرة⁽٢٨⁾.

وفي شهر ذي الحجة من سنة ٨٨٩هـ/ يناير ١٤٨٥م، وصل مبشر الحاج إلى القاهرة وبصحبته نائب غزة دولات باي بن مصطفى الذي نفاه السلطان إلى مكة، ثم أمر بإرساله إليه عند عودة المبشر⁽٢٩⁾.

---

(٢٧) الشريف علي بن حسن بن عجلان بن رمُيثة بن أبي نمي الحسني المكي، ولد سنة ٨٠٧ هـ بمكة، تولى إمرة مكة سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م، قبض عليه هو وأخوه إبراهيم بأمر السلطان، وأرسلا إلى القاهرة وهما مقيدان، فَسُجنا ببرج القلعة، ثم نقلا منه في سنة ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، إلى الإسكندرية ثم إلى دمياط، واستمرا بها إلى أن ماتا. عز الدين بن عبدالعزيز بن عمر بن فهد، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج٢، ص٤٨٧.

(٢٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٧.

(٢٩) المصدر السابق، ج٣، ص٢١٣.

ثالثًا: عودة المبشر من الحج

كان المبشرون في العصر المملوكي يعودون إلى القاهرة أو دمشق في وقت وزمن متوقع، فإذا حصل أي تأخير لهم فإن ذلك يسبب الخوف والقلق لأهالي الحجاج وأقاربهم. ويتقدم المبشر في عودته إلى القاهرة أو دمشق قبل الحجاج وكان مبشر الحاج المصري يحضر يوم الوقفة بعرفات، ويحضر أيام التشريق، ثم يبدأ بتجهيز نفسه استعدادًا للعودة إلى القاهرة والتزود بالزاد والماء، وأخذ المكاتيب من الحجاج لتوزيعها على أهالي وأقارب الحجاج في القاهرة، وقد أشارت المصادر المملوكية إلى عودة هؤلاء المبشرين.

"ففي أواخر سنة ٧٢١هـ (يناير ١٣٢٢م)، وصل إلى القاهرة سيف الدين أوجي أحد مماليك الأمير سيف الدين قجليس، وحسام الدين طرنطاي أحد مماليك القاضي كريم الدين وذلك يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر ذي الحجة بعد أن وقفا بعرفة، فكان خروجهما يوم السبت الثالث عشر من ذي الحجة بعد العصر ، وكانت مسافة مسيرهما من مكة إلى القاهرة اثني عشر يومًا ونصف اليوم"(٣٠).

أما مبشرو الشام فإنهم يتأخرون قليلاً عن مبشري الحاج المصري، حيث كانوا يرافقون الحجاج حتى يصلوا إلى تبوك أو العُلا(٣١)، ثم يتوجهون إلى دمشق في منتصف شهر المحرم

---

(٣٠) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص٣٢.

(٣١) العُلا: اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام، نزله رسول الله ﷺ وهو في طريقة إلى تبوك، وبُني مكان مصلاه مسجد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٦٣.

من كل سنة. "ففي يوم الأحد ١٥ محرم ٧٣٤هـ (٣ أكتوبر ١٣٣٣م) وصل إلى دمشق جماعة من الحجاج فارقوا الركب من منى، وتوجهوا مع ركب الكرك، ومن جملتهم الحاج إبراهيم الفلاح (ويقول) إنه مُنذ فارق الركب في منى ووصل إلى دمشق إحدى وثلاثون يومًا"(٣٢). "وفي يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ٧٣٥هـ (١٦ أغسطس ١٣٣٥م)، وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك، تاريخها تاسع المحرم، وأخبروا فيها برخص الأسعار ووجود المياه"(٣٣).

"وفي يوم الجمعة ٢١ محرم ٧٣٧هـ (٢٦ أغسطس ١٣٣٧م) وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك تاريخها الثالث عشر من المحرم، وتأخرت عن العادة، وقلق الناس لذلك، وفيها أنه حصلت مشقة كبيرة، ومات كثير من الجمال، وحصل العطش في المفازة للمُشاة والضعفاء، واحتاج بعض الناس إلى المشي للتخفيف عن الجمال، ورمى بعض الناس شيئًا من الأمتعة، ومن المحاير، ومن بعض الكتب(٣٤).

"وفي الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة من سنة ٨٤٨ هـ (١٢ إبريل ١٤٤٥م)، وصل المبشر إلى القاهرة يخبرهم بسلامة الحجاج، وكانت الوقفة بعرفات يوم الجمعة، وأنه فارقهم آخر نهار يوم السبت الحادي عشر من شهر ذي الحجة"(٣٥).

---

(٣٢) الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص٦٦١.

(٣٣) المصدر السابق، ج٣، ص٨٥٥.

(٣٤) المصدر السابق، ج٣، ص٩٢٥.

(٣٥) العسقلاني، إنباء الغمر، ج٩، ص٦٢٦.

أي أن المبشر تقدم يومين عن الوقت الذي عادة ما كان يغادر فيه المبشر من منى.

"وفي سنة ٩٢١هـ (١٥١٦م) تأخر مبشر الحاج ولم يصل إلا في السادس والعشرين من ذي الحجة بسبب اعتداءات العربان عليه وأخذهم كل ما معه من أموال ورسائل الحجاج"(٣٦).

وتعد عودة المبشر من مكة إلى القاهرة سريعة جدًا، حيث يقطع المسافة في أسبوعين، وكان المبشر يحرص على العودة سريعًا إلى القاهرة بسبب وجود السلطان هناك، لطمأنته على الحجاج وعلى أوضاع مكة والمدينة.

رابعاً: الكتب التي يحملها المبشرون إلى ذوي الحجيج وأقاربهم

كانت من مهام المبشر أخذ المكاتيب من الحجاج إلى أهلهم وذويهم وتوزيعها عند وصوله إلى القاهرة أو دمشق، وكان الأهالي وأقارب الحجاج ينتظرون قدوم المبشر، فإذا تأخر عن موعد قدومه يصيبهم الخوف والهلع بسبب تأخره، وقد وردت إشارات كثيرة لتوزيع تلك الكتب على ذوي الحجاج، ومنها:

"في يوم الثلاثاء ١٧ محرم من سنة ٧٣٤هـ (٥ أكتوبر ١٣٣٣م) وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك تاريخها ثامن المحرم، وقرئت على أصحابها، وأخبروا فيها أنهم طيبين في خير وعافية"(٣٧)، وكانت مضامين بعض تلك الكتب

---

(٣٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٨٢.

(٣٧) الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص٦٦٢.

التي يرسلها الحجاج إلى ذويهم "إن الحجاج في عافية، والأسعار رخيصة، وما وصل من اليمن إلا نفر يسير، والبهار كله قليل"(٣٨)، ولعل محتوى هذا الكتاب الذي أرسله شخص يدعى عمر بن جامع السلامي من مكة إلى دمشق عبر القاهرة يكون مشابهًا للكتب التي يرسلها الحجاج إلى ذويهم في مصر والشام، وذلك بوصف حالتهم، وأوضاعهم، ووصف أحوال مكة ومن قدم إليها من الحجاج.

ويُذكرُ أيضًا "أنه في يوم الجمعة الحادي والعشرين من محرم من سنة ٧٣٧هـ (٧ سبتمبر ١٣٣٦م) وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك تاريخها ثالث عشر من المحرم، وتأخرت عن العادة، وقلق الناس لذلك"(٣٩).

ونلحظ هنا تأخر مبشري الحاج المتجهين إلى دمشق إلى نصف المحرم من كل سنة؛ بسبب مرافقة هؤلاء المبشرين الحجاج إلى المدينة لزيارتها، ومن ثم يفارقونهم عندما يصلون العُلا أو الكرك.

الأخبار التي ينقلها المبشر:

كان المبشر ينقل أخبار الحج، ومشاعر الحجيج وسلامتهم، وما صادفهم من متاعب، وما نعموا به من راحة في الطريق بين مصر والحجاز، وينقل أيضًا أخبار الوفيات، وأخبار مكة والحوادث التي حصلت أثناء الحج.

---

(٣٨) المصدر السابق، ج٣، ص٦٦٣.

(٣٩) المصدر السابق، ج٣، ص٩٢٥.

وقد أشارت المصادر إلى كثير من الأخبار التي نقلها المبشر، ومنها:

في حوادث سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م "قدم مبشر الحاج إلى القاهرة وأخبر بأن الأمير نوغاي حارب العبيد بمكة، وكان سبب ذلك كثرة تخطفهم لأموال التجار"(٤٠).

وهذا الخبر يخص أمير الحاج (نوغاي) وما قام به من ضبط الأمن في مكة أثناء موسم الحج، وعدم السماح لأي عابث أن يعبث بأمن الحجيج وسلامتهم، وتكون مسؤولية المبشر في نقل مثل هذه الأخبار إلى السلطان، حتى يُطمئن السلطان على سلامة الحجاج، وأن أمير الحاج قام بكامل مسؤولياته تجاه حفظ الأمن والحفاظ على أرواح الحجيج.

وفي شهر المحرم من سنة ٧١٢هـ/ مايو ١٣١٢م "وصلت كتب الحجاج وأخبارهم، وأنها كانت سنة كثيرة الأمطار والمياه، والأسعار رخيصة، وأن الماء وجد في الرجوع في المفاوز المشقة من المدينة الشريفة إلى هدية في أربعة مواضع وأنهم مطروا بالمدينة النبوية، وبعرفات المشرفة مطرًا كثيرًا والحمد لله"(٤١).

ووردت كتب الحجاج من مكة سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م، متضمنة الأحداث التي جرت في مكة من ثورة عبيد مكة حول البيت الحرام، ونهبهم الحاج، وقتل جماعة من الحجاج منهم الأمير أيدمر وابنه، ولما علم السلطان الملك الناصر

---

(٤٠) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٤٢.

(٤١) البرزالي، تاريخ، ج٢، ق٢، ص٥٦.

محمد بذلك غضب من هذه الحادثة، وجرد جيشًا من مصر والشام للانتقام من فاعلي تلك الحادثة(٤٢).

وهذا الخبر الذي نقلته كتب الحجاج إنما يشخص الوضع الأمني في مكة في تلك السنة، وأن عبيد مكة استبدوا على الحجاج بمهاجمتهم لهم والسطو على ممتلكاتهم، مما جعل السلطان الملك الناصر يجرد قوة عسكرية للقبض على مرتكبي تلك الحادثة، ويظهر أيضًا أمام الملأ أنه هو المسؤول عن مكة والمدينة(٤٣).

ومن الأخبار أيضًا التي ينقلها المبشر رخص الأسعار وغلاؤها أثناء موسم الحج، حيث يحدث في بعض المواسم أن الأسعار تكون رخيصة جدًا ومناسبة للحجاج، وذلك بسبب كثرة البضائع الموجودة في مكة، ومن ثم تكون الأسعار رخيصة، أما بعض المواسم فتكون الأسعار غالية ومضاعفة، ومن ثم يجد الحاج مشقة في مسايرة تلك الأسعار بسبب غلائها وقلة وجودها.

---

(٤٢) عمر بن الوردي (زين الدين)، تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في أخبار البشر)، النجف، المطبعة الحيدرية، (د. ت)، ج٢، ص٤٢٠؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٩٤.

(٤٣) ويذكر ابن فهد أن السلطان الملك الناصر استدعى الأمير أيتمش بدار العدل وقال له بحضرة القضاة: لا تدع في مكة أحدًا من الأشراف، ولا من القواد، ولا من عبيدهم، وناد بها: من أقام منهم حل دمه، ثم أحرق جميع وادي نخلة، وخرب ما حول مكة من المساكن، وأخرج حرم الأشراف منها، فقام في ذلك قاضي القضاة جلال الدين محمد القزويني، ووعظ السلطان، وذكَّره بوجوب تعظيم الحرم، إلى أن استقر الأمر على أن كُتب لرميثة أمان وتقليد بإمرة مكة. إتحاف الورى، ج٣، ص١٩٥.

ومما أشارت به تلك المصادر ما حدث في سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م "أنه وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك في السابع عشر من المحرم، وفيها أنه أبيع الزاد بمكة العشرة بخمسة عشر درهمًا، والعسل والرطل من درهم إلى درهمين، وكذى السمن، وأن الماء على الماء، وأن أكثر الأشياء رخيصة على غاية ما يكون، والذي أحضر الكتب أستاذ دار أمير الركب، وطلع إلى ملك الأمراء إلى الصيد، واجتمع به، وأحضر معه جُراب تمر لملك الأمراء ففرقه، وأعطى كل أميرًا أربعة تمرات، وخلع عليه وأعطاه أقطاعًا في الحلقة"(٤٤)، وفي سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، قدم مبشرو الحاج، وأخبروا برخاء الأسعار(٤٥).

وفي سنة ٧٣٨هـ/ أغسطس ١٣٣٧م "قدم مبشر الحاج في أول المحرم وأخبر بسلامة الحجاج ورخاء الأسعار"(٤٦).

ومما يُذكر أيضًا في رخص الأسعار أنه في شهر ذي الحجة من سنة ٨٥٤ هـ/ يناير ١٤٥٤م، "وصل مبشر الحاج، وأخبر بالأمن والسلامة ورخاء الأسعار"(٤٧).

---

(٤٤) الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٢٥١.

(٤٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٧٣٢.

(٤٦) المصدر السابق، ج٢، ق١، ص٤٢٨، ويذكر ابن فهد عن رخاء هذه السنة: أن البلاد كانت رخية، بيعت الويبة الدقيق العلامة الفاخرة بتسعة دراهم، والسمن خمسة أرطال بدرهم، والعسل أربعةٍ أرطال بدرهم، واللحم أربعة أرطال بدرهم، والعجوة اثنا عشر رطلاً بدرهم. إتحاف الورى، ج٣، ص٢١٦.

(٤٧) جمال الدين يوسف بن تغري بردي (أبو المحاسن)، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج١، ص٣٠٣.

وأما الأخبار التي ينقلها المبشر عن غلاء الأسعار في مكة فهي:

"حضر إلى القاهرة مبشر الحاج سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٩م) وأخبر أنه قد حصل للحجاج أثناء عودتهم مشقة زائدة من موت الجمال، وتزايد الأسعار في الفول والشعير والبقسماط"(٤٨).

ويُذكرُ أيضًا أنه: "في سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١م) قدم مبشر الحاج وأخبر بوقوع غلاء بمكة المشرفة"(٤٩).

أما أبو المحاسن فيذكر في حوادث سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥٢م، "أنه في يوم الأحد ٢٣ ذي الحجة وصل مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة وغلا الأسعار بمكة"(٥٠).

ومن الأخبار التي ينقلها المبشر عن أحوال مكة المشرفة الداخلية، وأحوال أميرها وأخباره من حيث استقباله لركب

---

(٤٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٣٨، واتفق للحجاج في عودتهم إلى القاهرة محن شديدة من موت الجمال، وتزايد الأسعار، فلما نزلوا بالأزلم، وفي ظنهم أنهم يجدون ما جرت به العادة من الشعير والبقسماط المحمول إليهم من القاهرة، فلم يجدوا شيئًا من ذلك، لأن العربان تعرضت للإقامات تريد نهبها، فلم يتجاوزوا مغارة شعيب، فاشتد الأمر على الحجاج، وعلفوا جمالهم بما معهم من زادهم الذي هو قوتهم، وانقطع كثير منهم في الطرقات جوعًا وتعبًا، وبلغت الويبة الشعير إلى خمسين درهمًا فضة، ثم تزايد السعر حتى بلغت مائة درهم، وغلا عامة ما يباع أيضًا. ابن فهد ، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٣٢.

(٤٩) المصدر السابق، ج٢، ص٢٣٣.

(٥٠) حوادث الدهور، ج٢، ص٣٤٣.

الحاج المصري واهتمامه بالمحمل السلطاني، فقد وردت بعض الإشارات في هذا الخصوص منها:

في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٨٨هـ/ ٢٤ يناير ١٣٨٧م، قدم مبشر الحاج السيفي بطا الخاصكي، وأخبر بأن الأمير أقبغا المارديني أمير الحاج لما قدم مكة، خرج الشريف محمد بن أحمد بن عجلان(٥١) أمير مكة لتلقيه على العادة، ونزل وقبل الأرض، ثم قبل خف جمل المحمل(٥٢).

وهذه الرواية تدل على تبعية أشراف مكة للسلطان المملوكي في القاهرة، حيث جرت العادة أن يخرج أمير مكة ورجالاته لملاقاة المحمل المصري؛ لإظهار التبعية والطاعة للسلطان، وعندما ينقل المبشر مثل هذه الأخبار فإن السلطان يفرح بها ويطمئن على أحوال مكة والمدينة وأوضاعها.

وفي رواية أخرى أيضًا تدل على تبعية أشراف مكة للسلطان المملوكي أنه في سنة ٨٨٤ هـ/١٤٨٠م، من شهر ذي الحجة قدم مبشر الحاج، وأخبر بسلامة السلطان، وأنه دخل

---

(٥١) محمد بن أحمد بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي، يلقب بجمال الدين، تولى إمرة مكة في ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، وكان السلطان المملوكي الظاهر يرسل له تقليدًا وخلعة في كل سنة، توفي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م، عندما كان خارجًا لملاقاة الحمل المصري، فنزل وقبل خف الجمل، فوثب عليه باطنيان فجرحاه جرحات مميتة. ابن فهد، غاية المرام، ج٢، ص١٩٥.

(٥٢) جمال الدين يوسف بن تغري بردي (أبو المحاسن)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، مطبعة دار الكتب القومية، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج١١، ص٢٤٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٣١٨.

إلى مكة في موكب حافل، ولاقاه أمير مكة من مسيرة يومين(٥٣).

أما أخبار مكة وما يحدث لها من تعرضها للسيول أو نقص الماء وغير ذلك فكان المبشر ينقل للسلطان هذه الأخبار إذا حدثت، ومن ذلك: ما حدث سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، عندما قدم مبشر الحاج في شهر المحرم "وأخبر أن الحجاج لحقهم عطش شديد حتى مات منهم عدد كبير، وقتل منهم جماعة كثيرة؛ بسبب الازدحام على الماء وقت التروية"(٥٤).

أما عن خبر السيول فيذكر ابن إياس في حوادث سنة ٧٩٠هـ/ يناير ١٣٨٨م "أنه في المحرم قدم مبشر الحاج، وأخبر بأن الحجاج عند عودهم نزل عليهم سيل عظيم عند وادي القباب، فأخذ المحاير بما فيها من النساء، وغرق من الناس ما لا يحصى عددهم، وحصل لهم في هذه السنة غاية المشقة والضرر"(٥٥).

ومن الأخبار التي ينقلها المبشر أيضًا سلامة الحجيج ونقل مشاعرهم ورضاهم من أمير الحاج، وقد أشارت بعض

---

(٥٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٦٠؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٥٠٥.

(٥٤) ابن إياس، بدائع الزهور ، ج١، ق٢، ص١١٠.

(٥٥) المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٨٩، ثم سافر الحجاج فأصابهم سيل عظيم في ترعة حامد، ثم وادي القباب في ليلة تاسع عشر المحرم من سنة ٧٩٠هـ/ يناير ١٣٨٨م، فمات فيه عدد كثير غرقًا، من دفن منهم مائة وسبعة، وتلف من الأمتعة شيء لا يعبر عن كثره. ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٦٧.

المصادر إلى بعض هذه الأخبار، ومنها: ما ذكره المقريزي في حوادث سنة ٧١٩هـ/ ٥ مارس ١٣١٩م، "أنه في الخامس من المحرم قدم مبشر الحاج يخبر بسلامة الحاج"(٥٦).

ويذكر أيضًا في سنة ٧٣٨هـ/ ٧ أغسطس ١٣٣٧م، "أنه في أول المحرم قدم مبشرو الحاج يخبرون بسلامة الحجاج، ورخاء الأسعار، وحسن سيرة الأمير شمس الدين أمير الحاج"(٥٧).

وفي سنة ٨٥٩هـ/ ١٤ ديسمبر ١٤٥٥م، "وصل مبشر الحاج في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجة وأخبر بالأمن والسلامة"(٥٨).

وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة من سنة ٩٢٠هـ/ ١٨ فبراير ١٥١٥م، "حضر مبشر الحاج، فأخبر بالأمن والسلامة"(٥٩).

ومن فضائل دور المبشر أيضًا إخبار السلطان عندما يتعرض الحجاج إلى مشاكل أو صعوبات أثناء عودتهم إلى مصر أو الشام، إما بسبب الظروف الطبيعية السيئة، أو بسبب قطاع الطرق واللصوص فإن السلطان أو نائبه يسارعان بإرسال من ينقذ هؤلاء الحجاج أثناء عودتهم إلى مصر، وقد حدث ذلك في سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، أن مات

---

(٥٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٦٢.

(٥٧) المصدر السابق، ج٢، ق١، ص٤٢٨.

(٥٨) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج٢، ص٥٤٧.

(٥٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٣٢.

كثير من الحجاج أثناء عودتهم إلى القاهرة بسبب مكروه أصابهم، فأرسل الأمير أرغون العلائي الروايا وأحمال الزاد والجمال لإنقاذ باقي الحجيج عندما حدث لهم مكروه أثناء عودتهم إلى القاهرة، حتى إن مهنا (دليل الطريق) ذكر أنه سافر خمسين عامًا دليلاً ولم ير مثل هذه السنة(٦٠).

أما أخبار الوفيات التي تحدث في مكة لبعض الأعلام والمشايخ والقضاة، فكان المبشرون ينقلونها إلى السلطان، ويخبرونه بحوادث الوفيات إذا وجدت تلك السنة.

ومن هذه الأخبار وردت كتب الحجاج إلى السلطان سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م تفيد "بمقتل الأمير أيدمر أمير جندار وابنه في مكة، ولما علم السلطان بذلك غضب وجرد جيشًا من مصر والشام للانتقام من فاعلي ذلك"(٦١).

وفي سنة ٧٦٠هـ/ ٢٣ ديسمبر ١٣٥٨م، "وردت كتب الحجاج إلى دمشق في يوم السبت الثالث عشر من محرم، مؤرخة في سابع والعشرين من ذي الحجة من العُلا، وذكروا فيها أن صاحب المدينة النبوية هجم عليه فداويان عند لبسه خلعة السلطان، وذلك وقت دخول المحمل إلى المدينة الشريفة فقتلاه"(٦٢).

---

(٦٠) أبو بكر أحمد بن قاضي شهبة (تقي الدين)، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٩٤م، ج١، ص٤٠٦.

(٦١) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٤٢٠؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٩٤.

(٦٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٦٧.

ومن الإشارات أيضًا ما ذكره أبو المحاسن في حوادث سنة ٨٥٣هـ/ ١٦ فبراير ١٤٥٠م، عندما وصل مبشر الحاج في الرابع والعشرين من ذي الحجة، وأخبر بموت الشريف سراج الدين عبدالمجيد قاضي الحنابلة بمكة، وأخبر أيضًا بموت قاضي قضاة مكة الخطيب أبو اليمن النويري(٦٣).

وقدم مبشر الحاج في نهاية شهر ذي الحجة من سنة ٨٨٧هـ/ ١٦ فبراير ١٤٨٣م، "وأخبر أنه وقع بمكة سيل عظيم حتى دخل الحرم وقتل بالغرق نحو سبعين إنسانًا، وأخبر أيضًا بوفاة بدر الدين الدميري المعروف (بكتكوت) أحد نواب الشافعية"(٦٤).

وجميع هذه الأخبار كانت تهم السلطان ويحرص على معرفتها أولاً بأول، لأن مثل هؤلاء الأعلام لابد أن يكون السلطان على علم بأخبارهم.

الأُعطيات والهدايا التي تُقدم للمبشر:

في ظل ما ذُكر سابقًا عن مهام المبشر، والأدوار التي يقوم بها أثناء موسم الحج، من مرافقته للمحمل السلطاني، وكذلك عودته السريعة إلى مصر، وحمل المكاتيب معه إلى مصر أو الشام لتسليمها إلى ذوي الحجاج وأقاربهم، يتبادر أمامنا سؤال مهم هو: هل لوظيفة المبشر راتب مقطوع مثل

---

(٦٣) حوادث الدهور، ج١، ص٢٢٧.

(٦٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٩٨.

بقية وظائف الدولة؟ أم أن المبشر يكتفي بما يحصل عليه من الهدايا والأُعطيات التي تُقدم له عند عودته إلى القاهرة أو دمشق.

حسب الإشارات التي وردت في المصادر المملوكية في الشام ومصر، فإنه لم تذكر لوظيفة "مبشر الحاج" أية صفة أو أهمية، مثل بقية الوظائف الكبرى في الدولة.

كذلك يدل تنوع الشخصيات في تَقَلُّد هذه الوظيفة، وعدم استمرار المبشر بوظيفته كل سنة على أن هذه الوظيفة ليست رسمية، وإنما تنتهي مهمة المبشر عند انتهاء موسم الحج، ومما يدلل على ذلك أن أمير الحاج هو من يختار ويُعين من يثق به في هذه الوظيفة؛ ليضمن أن الأخبار التي سوف ينقلها للسلطان سوف تصله بكل دقة وأمانة ودون تحريف أو تزوير.

وهذه الإشارات توضح لنا أن مبشر الحاج لا يتقاضى راتبًا لهذه الوظيفة، وإنما يكتفي بالهدايا والخلع التي تأتيه من السلطان والأمراء والخواص.

وقد أوردت لنا بعض المصادر إشارات بسيطة لبعض المبشرين حصلوا على خُلع وأُعطيات، سواء من السلطان أو من الأمراء أو الخواص.

ومن هذه الأخبار التي وردت "أنه في يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر ذي الحجة من سنة ٧٢١هـ (٢٣ يناير ١٣٢٢م) وصل إلى القاهرة، سيف الدين أُوجي أحد مماليك الأمير سيف الدين قجليس، وحسام الدين طرنطاي، بعد أن وقفا بعرفة، وحضرا بين يدي السلطان، وتضمنت الكتب

سلامة زوجة السلطان، فخلع السلطان عليهما، وأنعم عليهما من بيت المال بخمسة آلاف درهم"(٦٥).

أما كتب الحجاج التي كانت ترسل إلى الشام فكان يقوم بهذه المهمة بعض خواص أمير الحج الشامي، "ففي السابع عشر من المحرم سنة ٧٢٨هـ (١٠ ديسمبر ١٣٢٧م) وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك أحضرها أستاذ دار أمير الركب، ولما وصل إلى دمشق ذهب إلى ملك الأمراء وهو في الصيد، واجتمع به، وأخبره بأمر الحجاج، فخلع عليه وأعطاه إقطاعًا في الحلقة"(٦٦)، ولعل المقصود بملك الأمراء هو والي دمشق في تلك الفترة.

وفي سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م "قدم الأمير بلك الجمدار(٦٧) الناصري(٦٨) مبشرًا بسلامة السلطان، فدقت البشائر، وخُلعت عليه خلع كثيرة، واطمأن الناس بعدما كانت بينهما أراجيف"(٦٩).

---

(٦٥) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص٣٢، وفيها حجت خوند طغاي زوجة السلطان الملك الناصر، وصحبتها قجليس، وكريم الدين الكبير. ابن دقماق، النفحة المسكية، ص١٢٧.

(٦٦) الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٢٥١.

(٦٧) الجمدار: هو الشخص المسؤول عن لباس السلطان. أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٥، ص٤٥٩.

(٦٨) بلك الجمدار الناصري: وُلي نيابة صفد أيام الصالح اسماعيل، ثم عاد إلى مصر أمير قائد سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م. العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٩٥.

(٦٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٥٥، وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون حج حجته الثالثة في سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م، برفقة أهله ومعظم أمرائه. للمزيد انظر ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٩٩.

وهذه الرواية توضح لنا شيئًا في غاية الأهمية، وهو أهمية دور المبشر في تطمين الناس على سلامة السلطان، فكان في القاهرة بعض الإشاعات بأن السلطان الناصر قد حصل له مكروه، وبعد حضور المبشر اطمأن الجميع على سلامته وهدأ الناس، ودحض أي نوايا مناوئة للسلطان.

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد توجه إلى الحجاز في نهاية سنة ٧٣٢هـ/ يوليو ١٣٣٢م، لأداء مناسك الحج، وهي حجته الثالثة، وقد عاد إلى القاهرة في الثامن عشر من المحرم من سنة ٧٣٣هـ/ ١٧ أكتوبر ١٣٣٢م(٧٠).

وفي ٢١ ذي الحجة ٨٤٤هـ/ ٢٢ مايو ١٤٤١م قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية(٧١) يقال له: (أسنباي)، فأخبر بسلامة السلطان، وأخبرهم أن السلطان دخل إلى مكة في موكب حافل، وكان له يوم مشهود، ولاقاه أمير مكة من مسير يومين، وأنه تصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار، ووقع منه تواضع وخضوع(٧٢).

---

(٧٠) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٣٥٦.

(٧١) الخاصكية: يلازمون السلطان في خلواته، ويسوقون المحمل الشريف، وكانت عدتهم زمن الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا، ثم زادوا في عهد برسباي، نحو ألف، ومنهم من هو صاحب وظيفة، ومنهم من لا وظيفة له. غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان كشف الطرق والمسالك، اعتنى لتصحيحه: بولس راويس، القاهرة، دار العرب البستاني، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١١٦؛ محمد البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١١٤.

(٧٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٦٠.

وكان السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي قد غادر بركة الحاج(٧٣) في يوم الخميس ٢٣ شوال ٨٤٤هـ/ ٢٥ مارس ١٤٤١م، إلى الحجاز ومعه أمراء العشرات(٧٤).

وحصل مبشر الحاج الأسنباي على خلع ومال كثير من الأمراء وأعيان الناس، ومن زوجة السلطان(٧٥)، وذلك بعد وصول الخبر لهم بسلامة السلطان وأدائه مناسك الحج.

وفي يوم الخميس ٢٤ ذي الحجة ٩٢٠هـ/ ١٨ فبراير ١٥١٥م، "حضر مبشر الحاج، وقد جدَّ في السير، فكانت مسافة الطريق اثني عشر يومًا، فأخبر بالأمن والسلامة، وأن ابن السلطان طيّب وكذلك زوجة السلطان، وطمأنهم على القاضي كاتب السر محمود بن أجا أنه بخير وسلامة، وكان قد أشيع موته، ففرح أكثر الناس بسلامته، ثم أن المبشر طاف على الأمراء والمباشرين وأعيان الناس وأخبرهم بسلامة ابن السلطان، فأفيضت عليه الخلع السنية من الأمراء وأعيان الناس قاطبة"(٧٦).

---

(٧٣) بركة الحاج: تقع في الجهة البحرية من القاهرة، عرفت أولاً بجب عُميرة، ثم عرفت ببركة الحاج، من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم. انظر: أحمد بن علي المقريزي (تقي الدين)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف (بالخطط المقريزية)، تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، القاهرة، مطبعة مدبولي، ط١، ١٩٩٧م، ج٢، ص٧٥٢.

(٧٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٦٠.

(٧٥) المصدر السابق ، ج٣، ص١٦٢.

(٧٦) المصدر السابق، ج٤، ص٤٣٢.

وقد نبني على ما سبق أن مبشر الحاج كان يتلقى الهدايا والأُعطيات من السلطان والأمراء، وخاصة عندما يبشرهم بسلامة السلطان أو أحد أبنائه أو زوجاته.

أما الأهالي وذوو الحجاج الذي كانوا ينتظرون قدوم مبشر الحاج ليطمئنهم على أهلهم وأقاربهم، ويسلمهم الكتب التي معه، فإن المصادر لم تذكر أن أحدًا من المبشرين تلقى هدايا أو أعطيات من الأهالي.

ويبدو أن هؤلاء المبشرين كانوا يتلقون هدايا، ولو كانت بسيطة، من بعض الأهالي، وخاصة من ذوي اليسار منهم، ومن ثم يحصل المبشر على بعض الهدايا والأعطيات عند عودته إلى مصر أو الشام.

المسافة التي كان يقطعها المبشر من مكة إلى القاهرة أو دمشق:

كان المبشر يرافق قوافل الحجيج المتجهة من القاهرة إلى مكة عبر طريق الحج المصري، أو من دمشق إلى مكة عبر طريق الحج الشامي.

فمبشر الحاج المصري يبدأ بتجهيز نفسه في اليوم الثالث من أيام التشريق للانطلاق إلى القاهرة، حيث كانت المسافة المعتادة بين مكة والقاهرة تستغرق ما بين اثني عشر يومًا إلى ثلاثة أسابيع، إذا كان المبشر جادًا في السير.

وقد وردت إشارات كثيرة في المصادر المملوكية تبين وقت وصول هؤلاء المبشرين إلى القاهرة أو دمشق، فإذا تأخر المبشر فإن زمن حضوره يكون في نهاية العشر الأولى من

شهر المحرم، وإذا تقدم يحضر ما بين الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة.

ومن تلك الإشارات: "قدوم المبشر إلى القاهرة في أول سنة ٧٠٨هـ (٢٩ يونيو ١٣٠٨م)(٧٧)، أي في أول شهر المحرم".

ويُذكُر أيضًا: "أنه في سنة ٧١٩هـ (مارس ١٣١٩م)، حضر المبشر في خامس المحرم"(٧٨).

وفي سنة ٧٣٣ هـ/ ٦ أكتوبر ١٣٣٢م: "قدم المبشر في الثامن من المحرم"(٧٩).

وفي المحرم من سنة ٧٨٨ هـ/ فبراير ١٣٨٦م، "قدم مبشر الحاج إلى القاهرة، وقد تأخر عن عادته أيامًا"(٨٠).

أما المبشرون الذي يحضرون إلى القاهرة في وقت مبكر فإن وصولهم كان مختلفًا عن بعضهم بأيام، ففي سنة ٧٩٤هـ/ ١٩ نوفمبر ١٣٩٢م، "وصل المبشر من الحجاز في الخامس والعشرين من ذي الحجة"(٨١).

ويُذكرُ أيضًا أنه "في الثالث والعشرين من ذي الحجة من سنة ٨٢٨هـ (١٣ نوفمبر ١٤٢٥م)، وصل مبشر الحاج إلى القاهرة"(٨٢).

---

(٧٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٤٢.

(٧٨) المصدر السابق، ج٢، ق١، ص١٦٢.

(٧٩) المصدر السابق ، ج٢، ق١، ص٣٥٥.

(٨٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٦٨.

(٨١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٣٩٥-٣٩٦.

(٨٢) المصدر السابق ، ج٨، ص٧٨.

"وفي الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة من سنة ٩٢٠هـ (١٨ فبراير ١٥١٥م)، حضر مبشر الحاج إلى القاهرة، وقد جدَّ في السير، فكانت مسافته في الطريق اثني عشر يومًا"(٨٣).

وهذا يعني أن هؤلاء المبشرين كانوا يقطعون المسافة في نحو اثني عشر يومًا من انطلاقتهم من مكة، ويُعد قطع ذلك الطريق في هذه المدة الزمنية القصيرة إنجازًا لهؤلاء المبشرين، أضف إلى ذلك أنهم كانوا يصلون إلى القاهرة في فترة مبكرة، إذا لم يواجههم أي مصاعب أو مشاكل أثناء الطريق، ولم يتعرضوا للسلب أو السرقة من قطاع الطرق واللصوص، كما أن ذلك يرتبط بالظروف المناخية أيضًا.

وقد سجل أحد المؤرخين في الفترة المملوكية استغرابه من تمكن بعض الحجاج والمبشرين من قطع الطريق في فترة زمنية محدودة وقال: "أنه في الثالث من المحرم من سنة ٧٢١هـ (٩ فبراير ١٣٢١م) وصل إلى مصر القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش المنصورة في الحجاز الشريف بعد أن وقف بعرفة يوم الجمعة، ولم يبلغنا أن أحدًا ممن وقف بعرفة وصل مثل هذا التاريخ، كما وصل الأمير شمس الدين آقسنقر الناصري شاد العمائر(٨٤) من الحجاز في السابع من المحرم سنة ٧١٩هـ (٧ مارس ١٣١٩م)، واستعظم

---

(٨٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٣٢.

(٨٤) شاد العمائر: هو المتكلم على العمائر السلطانية، والمشرف على تنفيذ ما يأمر السلطان بإحداثه أو تجديده من المساجد أو المنازل والقصور أو الأسوار والحصون. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢.

الناس ذلك، وكان الناس قبل ذلك إذا أسرع من يحضر منهم بالبشارة يصل يوم عاشوراء"(٨٥).

ويذكرُ أيضًا أنه "في يوم الجمعة ٢٦ ذي الحجة من سنة ٧٢١هـ (٢٣ يناير ١٣٢٢م)، وصل إلى القاهرة سيف الدين أوجي، وحسام الدين طرنطاي، بعد أن وقفا بعرفة، فذكر حسام الدين أن خروجهما من مكة كان يوم السبت ١٣ ذي الحجة من سنة ٧٢١هـ (١٠ يناير ١٣٢٢م)، وكانت مسافة مسيرهما من مكة إلى القاهرة اثني عشر يومًا ونصف وربع يوم...... ولم يُسمع أن أحدًا ممن وقف بعرفة وصل إلى القاهرة في سنته"(٨٦).

أما مبشرو الشام فإنهم كانوا يتأخرون عن مبشري مصر لأن السلطان المملوكي عادة يكون موجودًا في القاهرة، ومن ثم فإن مبشر الحاج المصري يضطر إلى العودة مسرعًا إلى القاهرة لينقل الأخبار إلى السلطان، ويطمئنه على الحجاج وأوضاع مكة والمدينة، أما مبشرو الشام فإنهم غالبًا يرافقون الحجاج حتى يصلوا إلى العُلا أو تبوك، ومن ثم يسبقونهم بالمكاتيب لتوزيعها على ذويهم وأهاليهم.

ومن ذلك ما ذُكر في سنة ٧٢٨هـ/ ١٠ ديسمبر ١٣٢٧م "أنه في يوم الأربعاء سابع عشر المحرم، وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك"(٨٧).

---

(٨٥) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١١.

(٨٦) المصدر السابق، ج٣٣، ص٣٢.

(٨٧) الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٢١٥.

ويُذكرُ أيضًا "أنه في يوم الجمعة الحادي والعشرين من محرم من سنة ٧٣٧هـ (٦ سبتمبر ١٣٣٦م)، وصل إلى دمشق كتب الحجاج من تبوك تاريخها ثالث عشر المحرم، وتأخرت عن العادة، وقلق الناس لذلك"(٨٨).

"ووردت كتب الحجاج إلى دمشق في يوم السبت الثالث عشر من محرم مؤرخة سابع وعشرين ذي الحجة من العُلا"(٨٩).

أما الطريق البري الذي كان يسلكه الحجاج من القاهرة إلى مكة شرفها الله تعالى فيبدأ من مكان يسمى بركة الحجاج، وهي أولى محطات طريق الحجاج من شمال القاهرة، وبعدها يتوجه الحجاج إلى الدار الحمراء، ثم يصل الحجاج إلى عجرود(٩٠) وهي محطة للركب في الجنوب الغربي من السويس، ثم يتوجهون إلى نخل(٩١) ثم إلى العقبة وبعدها يتوجهون إلى حقل(٩٢)، ثم إلى عيون القصب على ساحل البحر الأحمر مباشرة، ثم يتوجهون إلى الوجه، ثم

---

(٨٨) المصدر السابق، ج٣، ص٩٢٥.

(٨٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ج٢٦٧.

(٩٠) عجرود: منزلة من منازل الحاج على طريق الحاج المصري في الجنوب الغربي من السويس على مسافة عشرين كيلومترًا منها، ومن هنا كان يرجع المرضى والمنقطعون والمشيعون. ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٧٨، هامش رقم (١).

(٩١) نخل: موضع في طريق الشام من ناحية مصر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٢١.

(٩٢) حقل: مكان دون أيلة بستة عشر ميلاً. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٢١.

ينبع، وبعدها يتوجهون إلى بدر، فرابغ، ثم عسفان، ثم يتجه الحجاج إلى مكة المكرمة(٩٣).

وكان المبشر أثناء عودته إلى القاهرة يعود من الطريق نفسها الذي سلكه الحجاج أثناء قدومهم لمكة.

أما الطريق البري الذي يسلكه حجاج الشام فيبدأ من دمشق، ويسير إلى زرع (درعا) على بصرى، ثم على زيزا، ثم على الكرك، وبعدها معان، ثم على عقبة صوان، ثم تبوك، فالعلا، ثم المدينة الشريفة؛ وعند عودة حجاج الشام من مكة إلى المدينة يذهبون إلى العلا، ثم تبوك، فعقبة صوان، إلى معان، إلى زيزا، ثم إلى دمشق، ولا يمر الركب على الكرك، ولا بصرى، ولا زرع(٩٤).

---

(٩٣) محاسن محمد الوقاد، المحمل المصري في العصر المملوكي الأول، من دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب السادس، ١٤٢٩هـ، ص٢٣ - ٢٥.

(٩٤) عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ، ج١، ص, ٤٤٠ ويذكر حمد الجاسر في وصف طريق الحج الشامي نقلاً من مخطوط بعنوان "منازل الحاج" لإبراهيم بن شجاع الحنفي الدمشقي سنه ٦٢٣هـ: يبدأ الطريق من دمشق إلى الكسوة، ثم الضمير فزرع، ثم وادي شجرة، فوادي الضليل، ثم وادي الزرقاء، ثم زيزاء بالبلقاء فالف ناتور، ثم قبل الجول ثم عسيكر، فأرض الخصير، ثم مدينة معان، فبعدها مسيل البحر، فعقبة صوان، ثم سرغ فحالة وهي ذات حج، فتبوك ثم وادي ديسة ثم بير الأخيضر ثم أسفل الحاكة، فالأقارع فالحجر ثم العلا فالحفاير ثم دياوان، فهدية يسيروا، فوادي المفرح، ثم غدير فغراب ثم المدينة الشريفة. مجلة العرب، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة، جمادى الأولى، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ج١١، ص٨٦٩.

العقبات التي قد تواجه المبشر:

أشارت بعض المصادر المملوكية إلى أن هناك عوائق ومشكلات واجهت بعض المبشرين أثناء عودتهم إلى القاهرة أو دمشق، وترتب على تلك العوائق تأخر المبشر عن وصوله في الوقت المتوقع له، ومن ثم فإن الناس الذين ينتظرون هؤلاء المبشرين يقلقون ويخافون أنه قد أصاب الحجيج مكروه أو ضرر.

لذا كان حضور المبشر في وقته المعتاد يمنح الراحة والسكينة لأهالي الحجاج وأقاربهم.

ومما ذكرته المصادر عن بعض العقبات التي واجهت المبشرين "أنه في العشرين من شهر ذي الحجة من سنة ٨٣٤هـ (٧ سبتمبر ١٤٣١م)، مات مبشر الحاج وهو في الطريق وتأخر قدوم المبشرين بسبب ذلك يومين عن العادة"(٩٥).

والوفاة هي من العوائق التي تؤخر وصول الأخبار إلى القاهرة أو دمشق، فإذا توفي المبشر أثناء عودته إلى القاهرة، فإنه يتم تكليف أشخاص من العارفين بالطريق بتوصيل كتب الحجاج إلى القاهرة، وعلى الأرجح أن يكونوا من الأدلاء، كما سبقت الإشارة إلى "مهنا" الدليل الذي عمل على طريق الحج لمدة خمسين عامًا.

وفي شهر ذي الحجة من سنة ٨٣٨هـ/ يوليو ١٤٣٥م "قدم مبشر الحاج وهو مسلوب من الثياب، وقد عرّوه عرب بني لام في الوجه، وأخذوا ما معه من الكتب وغير ذلك"(٩٦).

---

(٩٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص٢٣٨.

(٩٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٦٣.

وعادة ما يصل المبشر في موعده إلا إذا واجه مثل هذه العوائق، حيث تكون القبائل الضاربة على طريق الحاج المصري مسؤولة عن تأمين هذه الطرق، وخاصة من قطاع الطرق واللصوص، أما إذا تعرض المبشر إلى مهاجمة هؤلاء اللصوص فإنه يتأخر عن موعده.

ففي سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م، تأخر المبشر عن القدوم إلى القاهرة بسبب قطاع الطرق، فندب بدلاً منه هجانًا عارفًا بمسالك الطرق، وأعطاه كتب الحجاج التي معه ليوصلها إلى القاهرة، فقدم الهجان وفرقت الكتب على أهالي الحجاج(٩٧).

ويحصل بسبب تأخر وصول المبشر بعض الأراجيف والأقوال، فعندما تأخر مبشر الحج سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م، وصل رجل من البادية إلى القاهرة ومعه بعض كتب الحجاج، وأخبرهم بأن الحجاج حصل لهم في الذهاب إلى مكة عطش ومات عدد كثير من الرجال والجمال، وحصل للأهالي اضطراب وخوف، ولم يطمئنوا حتى وصل جماعة في السادس عشر من المحرم من سنة ٨٤١هـ (٢٨ يوليو ١٤٣٧م)، وأخبروهم بأن الحجاج بخير، وأنهم تأخروا بسبب احترازهم من قطاع الطرق(٩٨).

وهذا يدل على أهمية وصول المبشر في الموعد المتوقع له؛ ليطمئن الناس على أهاليهم وذويهم.

---

(٩٧) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٩، ص١.

(٩٨) المصدر السابق، ج٩، ص٢.

وعندما يتعرض المبشر لعارض صحي أثناء عودته إلى القاهرة، فإن ذلك قد يؤخر تلقي السلطان لأخبار الحج، ففي نهاية شهر ذي الحجة من سنة ٨٥٧هـ/ يناير ١٤٥٤م، وَرد الخبر من نائب السلطان بالشام بأن الحج العراقي نُهب وقُتل عدد كبير منه، ولم يُبلغ السلطان بذلك من مبشر الحاج المصري الذي مرض في الطريق قبل وصوله إلى ينبع، فقدم بالبشارة بعض الهجانة الأعراب، إلا أنهم لم يذكروا للسلطان شيئًا عن ذلك النهب والقتل(٩٩).

وفي نهاية سنة ٨٩٨هـ/أكتوبر ١٤٩٣م، لم يحضر مبشر الحاج في موعده وأصبح الناس في قلق بسبب ذلك، وكان مبشر الحاج قد اعترض له بعض العربان أثناء الطريق وأعاقوه عندهم أيامًا(١٠٠).

وقد يكون المبشر عرضة للسرقة والحجز؛ لأنه يقطع الطريق من مكة إلى القاهرة، إما لوحده أو بمرافقة بعض الأدلاء الذين يدلونه على الطريق، وليس برفقته قوة تحميه، ولذا فإن اعتراضه سهل جدًا من قطاع الطرق واللصوص، ومن ذلك: تأخر مبشر الحاج سنة ٩٠٣هـ/ سبتمبر ١٤٩٧م، عن عادته، وكان تأخره حوالي ستة أيام، بسبب فساد طريق الحجاز(١٠١).

وحدثت حادثة أخرى مشابهة، حيث تأخر مبشر الحاج، ولم يحضر الا في السادس والعشرين من ذي الحجة من سنة

---

(٩٩) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج٢، ص٤٥٩.

(١٠٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٩٤.

(١٠١) المصدر السابق، ج٣، ص٣٧٧.

٩٢١هـ/ ٩ فبراير ١٥١٦م، وقد تأخر عن ميعاده عدة أيام، وكان سبب تأخره وإعاقته عن الوصول خروج العربان عليه، وأخذ جميع ما معه حتى راحلته وكُتب الحجاج التي معه، وقيل: "إن المبشر مشى على أقدامه لمدة يومين حتى وصل القاهرة، ولم تصل كتب الحجاج لأحد من الناس في هذه السنة، ولما سمع السلطان المملوكي بذلك تنكد"(١٠٢).

وتعد هذه الفترة التي يتعرض لها مبشرو الحاج لهذه المشكلات هي فترة ضعف الدولة المملوكية ونهايتها، حيث تمكن السلطان العثماني سليم الأول في التاسع والعشرين من ذي الحجة ٩٢٢هـ/ ١ فبراير ١٥١٧م، من دخول مدينة القاهرة والقضاء على الدولة المملوكية؛ فلذلك لم تكن الطرق آمنة مثل ذي قبل، ولم تكن الدولة المملوكية مسيطرة على الأوضاع داخليًا وخارجيًا، بسبب الضعف الذي حلَّ بها وأدى إلى نهايتها.

بعض الشخصيات التي تولت مهمة مبشر الحاج:

نقلت المصادر المملوكية بعض أسماء مبشري الحاج الذين تولوا هذه المهمة، إلا أن تلك المصادر تكتفي في بعض الفترات بالقول: "وقدم مبشر الحاج" فقط، ولا تذكر اسمًا من هؤلاء المبشرين:

- الأمير سيف الدين قجليس: قدم من الحجاز في أول المحرم ٧١٣هـ/ ٦ مايو ١٣١٣م، إلى القاهرة(١٠٣).

---

(١٠٢) المصدر السابق، ج٤، ص٤٨٢.

(١٠٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٢٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٧١.

- أرسل السلطان الملك الناصر أثناء عودته من المدينة في شهر ذي الحجة ٧١٩هـ/ فبراير ١٣٢٠م، الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين أرغون، والأمير سيف الدين قطلوبغا المعروف بالمغربي المعزي بالبشارة بمقدمه(١٠٤).
- الأمير ناصر الدين محمد بن أرغون النائب: قدم مبشرًا إلى مصر سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، بقدوم السلطان الملك الناصر محمد من الحجاز(١٠٥).
- يبغا الحموي: قدم مبشرًا بسلامة الحاج سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م(١٠٦).
- الأمير بلك الجمدار الناصري قدم مبشرًا بسلامة السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م(١٠٧).
- السيفي بطا الخاصكي: رأس المبشرين سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م(١٠٨).
- أحمد بن جانبك: قدم مبشرًا بسلامة الحاج سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م(١٠٩).

---

(١٠٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٣٠٦.

(١٠٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٠١.

(١٠٦) المصدر السابق، ج٢، ق١، ص ٢٧٨.

(١٠٧) المصدر السابق، ج٢، ق٢، ص٣٥٥.

(١٠٨) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢٢٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج١١، ص٢٤٥.

(١٠٩) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج١، ص١٣٧.

- أزبك الساقي الظاهري: قدم مبشرًا بسلامة الحاج سنة ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م(١١٠).
- أيدك الأشرفي: قدم مبشرًا سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م(١١١).
- الشهابي أحمد بن الأمير سو نجبغا اليوتسي الناصري: قدم مبشرًا من الحجاز سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م(١١٢).
- السيفي فارس دوادار الأمير دولات باي الدوادار: قدم مبشرًا بسلامة الحاج سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م(١١٣).
- سنقر الأشرفي: قدم مبشرًا بسلامة الحاج سنة ٨٥٩هـ/ ١٤٥٥م(١١٤).
- السيفي جانبك الظاهري المعروف بالأبلق: قدم مبشرًا بسلامة الحاج سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م(١١٥).
- دمرداشي الطويل: قدم مبشرًا سنة ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م(١١٦).
- جان بلاط الغوري: قدم مبشرًا في سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م(١١٧).

---

(١١٠) المصدر السابق، ج١، ص١٥٨.

(١١١) المصدر السابق، ج١، ص٢٢٧.

(١١٢) المصدر السابق، ج٢، ص٣٤٣.

(١١٣) المصدر السابق، ج٢، ص٣٨٠.

(١١٤) المصدر السابق، ج٢، ص٥٤٧.

(١١٥) المصدر السابق، ج٢، ص٥٩٧.

(١١٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٣٤٢.

(١١٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص١٠٦.

- أسنباي، قدم مبشرًا في سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م(١١٨).
- قيتباي، وهو أحد مماليك السلطان: قدم مبشرًا سنة ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م(١١٩).
- تاني بك الأبح: كان هو مبشر الحاج في سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م(١٢٠).

الخاتمة:

نخلص مما سبق إلى أن وظيفة مبشر الحاج في العهد المملوكي لم تكن من الوظائف الرسمية الدائمة لشخص معروف، وإنما يتغير هؤلاء المبشرون كل سنة، وهذا يدلل على أنها لم تكن وظيفة ثابتة لأحد.

وتبين في هذا البحث مهام المبشر والأعمال التي كان يقوم بها أثناء مرافقته لقافلة الحجيج وحتى عودته إلى القاهرة، حيث إن عودته المبكرة قبل الحجاج من مكة هي أهم الأعمال التي يقوم بها، وكذلك حمل مكاتيب الحجاج وتوزيعها على أهاليهم وأقاربهم في القاهرة أو دمشق.

كذلك تعرفنا إلى أهم الأخبار التي كان ينقلها المبشر للسلطان أو الأهالي وكانت أهمها هي سلامة السلطان، وكذلك سلامة الحجاج وعافيتهم، وأهم أخبار مكة والمدينة الاقتصادية والاجتماعية والأخبار العامة التي تحدث في مكة، والسيول والحوادث التي قد تقع في تلك السنة.

---

(١١٨) المصدر السابق، ج٣، ص١٦٠.

(١١٩) المصدر السابق، ج٣، ص٢١٣.

(١٢٠) المصدر السابق، ج٣، ص٢٩٤.

وأمدنا هذا البحث بالأُعطيات والهدايا التي كان يحصل عليها المبشر وخاصة من السلطان والأمراء وذوي اليسار من الناس، عندما ينقل لهم أخبارًا سارة عن الحجاج وسلامتهم.

تعرفنا أيضًا إلى المدة الزمنية التي كان المبشر يستغرقها في طريق من مكة إلى القاهرة، حيث كانت أقصر مدة قطعها المبشر هي اثني عشر يومًا.

وأخيرًا أمدنا البحث بالعقبات التي قد تعوق المبشر عن الوصول إلى القاهرة، إما بسبب تعرض العربان له، أو وفاته، أو فساد الطريق.